حوار هادىء مع قداسة بابا الفاتيكان

لفضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى

شيخ الأزهر الشريف

«المقال الأول»

فى شهر يناير سنة ٢٠٠٠م زار قداسة بابا الفاتيكان الراحل مشيخة الأزهر الشريف خلال زيارته لمصر، وتم خلال الزيارة تبادل الكلمات الطيبة، والبيانات الحسنة التى تم التعاهد فيها على احترام الأديان التى جاء بها الرسل الكرام -عليهم الصلاة والسلام-.

واستمرت هذه العلاقة الطيبة بين الأزهر الشريف وبين قداسة بابا الفاتيكان الراحل.

ومنذ أيام، ألقى قداسة بابا الفاتيكان الحالى فى إحدى الجامعات الألمانية محاضرة موضوعها: «العقيدة والعقل والجامعة».

والمحاضرة -فى مجموعها- عرض دينى فلسفى عن الذات الإلهية من وجهة النظر المسيحية، وعن التيارات المسيحية فى القرون الوسطى، إلا أن قداسته فى أوائل المحاضرة -وبعد أن ذكر جانبًا من ذكرياته الخاصة مع هذه الجامعة- قال: "كل هذا حضرنى وأنا أقرأ مؤخرًا كتابًا للبروفيسور تيودور خوري، والذى أخرج فيه جزءًا من نقاش دار بين القيصر البيزنطى، وبين أحد المثقفين الفرس، وكان هذا النقاش فى شتاء عام ١٣٩١م".

ودار هذا الحوار حول «الإسلام والمسيحية وحقيقة كليهما».

ووفق ما أشار إليه البروفيسور خورى فى كتابه، يأتى القيصر إلى ذكر الجهاد، ومن المؤكد أنه كان يدرك أن الآية رقم ٢٥٦ من السورة الثانية -سورة البقرة- التى تقول: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، وهى إحدى السور المتقدمة التى قيلت فى الوقت الذى كان فيه محمد نفسه بلا سلطان أو قوة، بل كان مهددًا. لكن القيصر كان يعلم -أيضًا- ما جاء فى السورة التى ظهرت فيما بعد، والتى تضمن تشريعات الجهاد.

وقد توجه القيصر مباشرة -وبطريقة فظّة- إلى مناقشة الفارسى بالسؤال عن العلاقة بين الدين والعنف، فقال له: أرنى ما هو الجديد الذى جاء به محمد؟ لن تجد سوى كل ما هو سيء وغير إنسانى، وذلك مثل نشر الاعتقاد الذى كان يعلّمه لخصمه باستخدام السيف.

وعتابنا لقداسة بابا الفاتيكان يتلخص في أنه ساق ما ذكر تيودور خوري من كلام سيء قاله القيصر البيزنطي الموتور عن الإسلام ونبيه محمد ﷺ، دون أن يعلّق عليه تعليقًا يدل على استنكاره لهذا الكلام الخبيث.

ومن المعروف عند العقلاء أن من ذكر كلامًا سيئًا عن غيره، ثم لا يعلق أو يعقب عليه بالحق، فكأنه راضٍ عن هذا الكلام القبيح، أو كأنه هو قائله.

وما كنا نود أن قداسة بابا الفاتيكان يقع فى هذا الخطأ الذى يتعارض مع الأدب الدينى والمنهج العلمى، لاسيما ومحاضرته عن المسيحية وعقيدتها ونظرتها إلى العقل، وهى أمور لا داعي لحشر ما يتعلق بالإسلام بها.

لقد ذكر القيصر البيزنطى أن الإسلام دين قام على الإكراه والعنف وحد السيف، وحكى بابا الفاتيكان كلامه كما قرأه فى كتاب البروفيسور خورى، وكأنه راض عما قرأه.

وإنى فى هذا المقال سأذكر لقداسة بابا الفاتيكان -بكل صدق ويقين وإخلاص وموضوعية- جانبًا من الحقائق النقلية والعقلية التى تدل دلالة واضحة على أن الإسلام دين قد انتشر فى مشارق الأرض ومغاربها على الإقناع لا على الإكراه، وعلى الاختيار لا على القهر، وعلى القبول لا على الرفض.

الحقيقة الأولى: أن الرسل جميعًا -عليهم الصلاة والسلام- قد أرسلهم الله -تعالى- إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين، لا قاهرين ولا مجبرين لأحد على اتباعهم. ومن الآيات القرآنية التى أكدت على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأنعام:٤٨].

والمعنى: يقول الله -تعالى-: وما نرسل رسلنا وأنبياءنا الكرام إلى الناس إلا لتبشير أهل الإيمان والطاعة بالثواب العظيم، ولإنذار أهل الشرك والمعصية بالعقاب الأليم.. فمن آمن من الناس وقدّم العمل الصالح، فلا خوف عليهم فى مستقبلهم، ولا هم يحزنون على ما مضى من حياتهم، ومن هذه الآيات أيضًا قوله سبحانه: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٦٥].

والمعنى: يقول الله -عز وجل-: اقتضت حكمتنا وسنتنا التى لا تتغير ولا تتبدل أن نرسل إلى خلقنا رسلاً كثيرين لا يعلم عددهم على الحقيقة إلا الله -تعالى- وحده،

وهؤلاء الرسل الكرام وظيفتهم: تبشير أهل الصلاح بالخير، وإنذار أهل الفساد بسوء المصير، وكان الله -تعالى- ومازال عزيزاً في ملكه، حكيماً في قوله وفعله وفي تصريف شئون عباده.

ومن هذه الآيات كذلك قوله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة:٢١٣].

ومن معاني هذه الآية الكريمة: كان الناس جماعة واحدة متفقين على إخلاص العبادة لله الواحد القهار، ثم اختلفوا بعد ذلك في عقائدهم وسلوكهم، فكانت النتيجة أن أرسل رسله وأنبياءه؛ ليبشروا من آمن وعمل صالحًا بالخير الوفير، ولينذروا من أشرك مع الله في العبادة آلهة أخرى بسوء المصير.

وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت أن وظيفة الرسل جميعًا هي تبشير من آمن وعمل صالحًا بالخير، وإنذار من أشرك وعمل سيئًا بالعقاب، وليس من وظيفتهم إجبار أحد على اتباعهم أو الدخول في دينهم.

الحقيقة الثانية: أن القرآن الكريم قد ذكر في كثير من آياته -بالنسبة للنبي ﷺ خاصة- أن رسالته كانت للناس جميعًا، بل للإنس والجن، وأن دعوته لهم كانت قائمة على وجوب إخلاص العبادة لله وحده، وعلى التحلي بمكارم الأخلاق، عن طريق القول الحكيم، والتوجيه السديد، والمجادلة بالتي هي أحسن.. ولم تكن في يوم من الأيام عن طريق القهر أو الإكراه أو الإرهاب، أو التخويف أو التهديد، أو غير ذلك من وسائل الضغط أو السيطرة.

ومن هذه الآيات القرآنية: قوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾[البقرة:١١٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[سبأ:٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥-٤٦]، وقوله تعالى: ﴿﴾[هود:٢]،

وقوله عز وجل: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[الرعد:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾[الشورى:٤٨]،، وقوله سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، وقوله عز وجل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[ق:٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾[يونس:١٠٠].

هذه بعض الآيات القرآنية التى أكدت أن دعوة النبى ﷺ تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، ولم تقم فى يوم من الأيام على الإكراه أو الإجبار أو السيف.

والمتأمل فى هذه الآيات يراها تأمر النبى ﷺ بوجوب التزام الدعوة إلى الحق بالقول الطيب، وبالإرشاد القويم، وبالسلوك الحميد، وبأساليب متنوعة: تارة عن طريق التبشير والإنذار، وتارة عن طريق التبليغ وليس الحساب للناس، وتارة عن طريق التذكر وليس عن طريق السيطرة، وتارة عن طريق بيان أنه ﷺ ليس على الناس بجبار أو حاكم متسلط، وتارة عن طريق بيان أن الله تعالى بقدرته يهدى الناس جميعًا، وأنه ﷺ ليس فى قدرته أن يكرههم على اتباعه أو الدخول فى دينه.

الحقيقة الثالثة: أن الآية الكريمة التى استشهد بها القيصر وهى قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، والتى قال عنها إنها من السور المتقدمة فى الوقت الذى كان فيه مهددًا وبلا سلطان.." هذه الآية أحب أن أصحح لقداسة بابا الفاتيكان معلوماته عنها فى كلمات:

أولها: أن هذه الآية هي قوله تعالي: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٥٦].

ثانيها: أن سورة البقرة التى تعد هذه الآية من أواخر آياتها قد ابتدأ نزولها على النبى ﷺ فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينةالمنورة، أى: بعد ما يقرب من خمس عشرة سنة من دعوته، وأن آخر آية من القرآن نزولاً كانت من هذه السورة، هذه الآية التى كانت آخر آيات القرآن نزولاً هى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨٠]، وهذه الآية نزلت على النبى ﷺ قبل وفاته بتسع ليال.

ثالثها: أن سورة البقرة -وهى أطول سورة فى القرآن- قد امتد نزول آياتها لبضع سنوات، ومن المحتمل أن تكون الآية التى قال الله -تعالى- فيها: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ من أواخر الآيات التى نزلت من هذه السورة.

رابعها: أن هذه الآية الكريمة ذكر المفسرون فى سبب نزولها أن رجلاً من أهل المدينة دخل فى الإسلام، وكان له ولدان لم يدخلا فى الإسلام، فذهب الرجل إلى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله، أيدخل بعضى -أى: ولداى- فى النار وأنا أنظر إليهما؟ يا رسول الله أنا أريد أن أكرههما على الدخول فى الإسلام، فنزلت هذه الآية الكريمة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

خامسها: تفسير هذه الآية الكريمة بإيجاز: هذا الدين الإسلامى لا إكراه على الدخول فيه؛ لكمال هدايته، ولوضوح إرشاداته، ولسماحة توجيهاته، فآياته يتضح بها الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن يكفر بكل ما عبد من دون الله ويؤمن بوحدانية الله -تعالى- وبقدرته، فقد ثبت واستقام على الطريقة المثلى، واستمسك من الدين بأقوى سبب لا انقطاع له، والله -تعالى- سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم ونياتهم، وسيجازيهم على ذلك.

والخلاصة: أن ما قاله القيصر البيزنطى عن هذه الآية وعن السورة التى هى منها، وأنها من السور المتقدمة فى لنزول، كان النبى ﷺ وقت نزولها مهدداً وبلا سلطان.. هذا القول لا أساس له من الصحة.

ولعلنى بهذا التوضيح أكون قد صححت لقداسة بابا الفاتيكان المعنى الصحيح لها؛ لأن كثيراً من الناس يفسرون هذه الآية الكريمة تفسيراً سقيمًا لا يقبله عقل أو نقل.

الحقيقة الرابعة: أن شريعة الإسلام تهدم كل قول أو فعل أو اعتقاد يأتى عن طريق القسر أو الإجبار أو ما يشبههما، ولا تعتد إلا بما يصدر عن الإنسان عن اختيار ورضا واقتناع، بل إنها قد أباحت لأتباعها أن يتلفظوا بما يتنافى مع عقيدتهم عند الأذى الشديد والتعذيب الذى قد يؤدى إلى الموت، ولا يقدح هذا التلفظ فى إيمانهم مادامت قلوبهم عامرة بالإيمان الصادق، وباليقين العميق، والدليل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النحل:١٠٦].

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات، منها: أن المشركين عذبوا عمار بن ياسر -رضى الله عنهما- تعذيبًا شديدًا كاد يفقد معه حياته، وأجبروه على النطق بكلام يتنافى مع أحكام الإسلام، فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه.. فقال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن عمارًا قد ارتد عن الإسلام!! فقال ﷺ: «كلا إن عمارًا امتلأ قلبه إيمانًا من رأسه إلى قدمه، واختلط الإسلام بلحمه ودمه»، ثم أقبل عمار بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ وهو يبكى، فجعل النبى ﷺ يمسح له عينه وقال له: «يا عمار، إن عادوا فعد» أى: إن عادوا إلى تعذيبك فعد إلى مطاوعتهم. ونزلت هذه الآية الكريمة.

ومعناها بإيجاز: من كفر بالله تعالى بعد إيمانه بوحدانيته عز وجل، وبعد إيمانه بصدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، استحق هذا الكافر المرتد العذاب المهين. لكن من أكره على النطق بكلمة الكفر، والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان، فإنه فى هذه الحالة لا إثم عليه، ولكن الإثم العظيم والعقاب الشديد يقع على من انشرح قلبه بالكفر، واعتقد بصحته.

وقد أخذ كثير من العلماء من هذه الآية الكريمة جواز التكلم بكلام يتعارض مع أحكام شريعة الإسلام، عند الإكراه الذى يخشى معه فقدان الحياة، ولا يعد ذلك من باب الارتداد إلى الكفر، مادام هذا الإنسان قلبه مطمئن بالإيمان، ومادامت عقيدته ثابتة على الإسلام.

الحقيقة الخامسة: من المعروف لكل ذى عقل سليم أن الإكراه على العقائد لا يأتى بمؤمنين صادقين، ولكن يأتى بمنافقين كذابين، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، وهذا النوع من الناس: كراهية الإسلام له أشد من كراهيته للمخالفين الصرحاء؛ لأن المخالف الصريح لعقيدتك تستطيع أن تأخذ حذرك منه، أما الذى يتظاهر بأنه معك بعد أن أكرهته وأجبرته على ذلك، أو لأنه هو بطبيعته يخفى خلاف ما يظهر، فإن ضرره أشد وعداوته أقبح، وإفساده للدين والدنيا أعظم.

ولذا جاءت عشرات الآيات القرآنية فى ذم النفاق والمنافقين، وفى تحذير المؤمنين الصادقين من شرورهم ومكرهم. ومن هذه الآيات القرآنية: قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[المنافقون: ١-٣].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٤٢﴾ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَٰؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[النساء:١٤٢-١٤٣].

ومن هذه الآيات الكريمة يتبين لكل ذى عقل سليم، أن الإكراه على العقائد يتعارض تعارضًا تاما مع أحكام شريعة الإسلام، التى لا تعترف إلا بالعقيدة التى يتحلى بها صاحبها عن طواعية واقتناع واختيار، والتى تحمل صاحبها على أن يلتزم بالإيمان الصادق والعمل الصالح، الذى يدل على أن ما يقوله بلسانه يتوافق مع ما هو مستقر فى قلبه، وفوق كل ذلك، فإن الإكراه على العقائد -كما يقول بعض العلماء- هو عديم الجدوى من ناحية الاعتقاد ومن ناحية العمل.

وذلك لأن الإكراه معناه: أن تلجىء غيرك إلى الأخذ بما لا يراه ولا يؤمن به، وإلى العمل بمقتضاه، وإن لمن المهين أن تجعل غيرك يعمل بما تحب، ولكن من العسير -إن لم يكن من المستحيل- أن تجعله يعتقد رغم أنفه، وأن تجعله يعمل وفق اعتقادك.

الحقيقة السادسة: من الثابت تاريخيا وواقعيا، أن المسلمين لم يلجأوا فى يوم من الأيام إلى إكراه أحد على الدخول فى الإسلام، وإنما كانوا إذا فتحوا بلدًا من البلاد عرضوا على أهله الإسلام، فإن دخلوا فيه عن اقتناع فبها ونعمت، وإن أبوا إلا البقاء على دينهم وعقيدتهم تركوهم وشأنهم، وعاملوهم بالمعاملة العادلة التى قررتها شريعة الإسلام.

وقد رأينا فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ أن الرسول ﷺ لم يقبل من الرجل الذى دخل الإسلام أن يجبر ولديه على ترك دينهما وعلى اعتناق الإسلام.

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- رأى امرأة عجوزًا ليست مسلمة، فقال لها: "أيتها المرأة العجوز، أسلمى تسلمى، فقالت له: أنا امرأة عجوز، والموت إلى قريب، وأنا أريد أن أبقى على دينى، فقال عمر: "اللهم اشهد بأنى بلغت".

فإن قال القائل: ولكن ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل النا س حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحق الإسلام وحسابه على الله».

فهذا الحديث الشريف ظاهره قد يفهم منه البعض أنه يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؛ لأن القتال قد يعنى الإكراه.

فالجواب عن هذه الشبهة: أن المراد بالناس فى الحديث الشريف كما قال المحققون من العلماء: أولئك الذين يحاربون دعوة الإسلام بكل وسيلة، والذين يعلنون عداوتهم للمسلمين وما تخفى صدورهم أكبر. فهؤلاء هم الذين قصدهم رسول الله ﷺ بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله». وهؤلاء هم الذين أمرنا الله -تعالى- برد عدوانهم ودفع بغيهم؛ صيانة لكرامتنا.

أما غيرهم ممن ليسوا على ديننا ولا يعيشون معنا، ولكنهم لا يسيئون إلينا، فالقرآن الكريم يقول فى شأنهم: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ﴾[التوبة:٧].

وأما غيرهم ممن هم ليسوا على ديننا، ولكنهم يعيشون معنا ونعيش معهم فى وطن واحد، وتجمعنا معهم مصالح مشتركة، فهؤلاء تنطبق عليناوعليهم القاعدة الشرعية التى تقول: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

الحقيقة السابعة: أنه إذا كان من الثابت تاريخيا وواقعيا أن المسلمين -حكامًاومحكومين- لم يجبروا أو يكرهوا أحدًا على الدخول فى الإسلام -كما بيناه فى الحقيقة السادسة-، فإنى أقول فى المقابل لقداسة بابا الفاتيكان، إنه من الثابت أيضًا تاريخيا وواقعيا أن الذين دخلوا فى الإسلام عن طواعية واختيار، وجاءوا من شتى الدول إلى مشيخة الأزهر ليعلنوا دخولهم فى الإسلام يعدون بالآلاف، وعلى سبيل المثال:

* ففى سنة ٢٠٠٠م بلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ٩٠ تسعين دولة ٩٣٨ فردًا.

* وفى سنة ٢٠٠١م ببلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ٩١ إحدى وتسعين دولة ٨٦٠ فردًا.

* وفى سنة ٢٠٠٢م ببلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ٩٣ ثلاثة وتسعين دولة ١١١٦ فردًا.

*وفى سنة ٢٠٠٣م ببلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ٩٨ ثمانية وتسعون دولة ١٣٤٤ فردًا.

* وفى سنة ٢٠٠٤م ببلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ١٢٢ مائة واثنين وعشرين دولة ١٦٧١ فردًا.

* وفى سنة ٢٠٠٥م ببلغ عدد الذين دخلوا فى الإسلام من ١٠٤ مائة وأربع دول ٢٠٥٢ فردًا.

وهؤلاء جميعًا من رجال ونساء جاءوا من بلادهم طائعين مختارين إلى مشيخة

الأزهر ليعلنوا دخولهم فى الإسلام، دون أن يكرههم أحد على ذلك، لا بحد السيف -كما زعم القيصر البيزنطى- ولا بأية وسيلة من وسائل القهر أو الإجبار أو ما يشبههما كما زعم غيره.

ومن كل ما سبق، يتبين بوضوح لكل عاقل أن شريعة الإسلام تهدر وتبطل كل قول أو فعل أو اعتقاد، يأتى عن طريق القهر أو الإكراه أو الإجبار؛ لأن ذلك يتنافى مع مبادئها وأصولها، التى تقوم على التدبر والتفكر والاقتناع والاختيار.

كما يتبين بوضوح أيضًا أن كل من يزعم أن الإسلام قد انتشر بحد السيف أو بالإكراه، قد كذب فى قوله، وخالف الحقيقة، وجانبه الصواب، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

* * *

«المقال الثانى»

قلنا فى مقالنا السابق إن قداسة بابا الفاتيكان قد قال خلال إلقاء محاضرته بإحدى الجامعات بألمانيا، بأنه قرأ أخيراً كتاباً للبروفيسور تيودور خورى، ذكر فيه جزءاً من نقاش دار بين القيصر البيزنطى وبين أحد المثقفين المسلمين الفرس.

وأن القيصر البيزنطى قد توجه مباشرة وبطريقة فظّة إلى مناقشة المسلم بالسؤال عن العلاقة بين الدين والعنف.. وانتهى إلى أن دين الإسلام قد انتشر بالسيف.. وقد ذكرنا فى المقال السابق سبع حقائق تشهد بأن الإسلام قد انتشر بالإقناع والاختيار وليس بالسيف أو الإكراه.

وفى هذه المناقشة التى دارت بين القيصر والمسلم، تعرّض القيصر أيضًا لموضوع «الجهاد فى الإسلام» وأنه شرع للقتل والعدوان.

وفى هذا المقال، سنوضح لقداسة بابا الفاتيكان، بكل صدق وموضوعية، المقاصد الحقيقية لمشروعية الجهاد فى الإسلام، بعد أن جهلها الكثيرون من الكتاب الغربيين ومن غيرهم، وسيرى قداسة البابا وغيره أن الجهاد فى الإسلام قد شُرِّع للدفاع عن الدين وعن النفس وعن المال وعن المظلوم وعن الكرامة الإنسانية، وعن كل ما يجب الدفاع عنه شرعًا، وعقلاً، وقانونًا، وعرفًا، ولم يشرع لقتل الآمنين، ولا لإرهابهم وإذلالهم، أو العدوان عليهم كما يزعمون، وهذه بعض الحقائق التى تشهد على ما نقول:

الحقيقة الأولى. أن كلمة "الجهاد" فى اللغة العربية مشتقة من الجهد بمعنى التعب والمشقة، وبذل نهاية الطاقة فى الوصول إلى أمر معين، أو فى الحصول على مطلب محدد، كالحصول على المال أو على التفوق فى لون معين من ألوان العلوم، وقد يكون بذل هذا الجهد الشاق حسيا، كما نرى فى المسابقات الرياضية وما يشبهها. وقد يكون معنويا عن طريق التغلب على الخصم بالحجة الناصعة وبالأدلة الساطعة، وبالبراهين التى تخرس الخصوم.

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾[الفرقان: ٥٢]. والضمير فى قوله سبحانه ﴿به﴾ يعود إلى القرآن الكريم.

والمعنى: لقد آتيناك يا محمد القرآن الكريم، المشتمل على كل ما يحق الحق ويبطل

الباطل فتسلح به، ومادام الأمر كذلك، فلا تطع الكافرين فيما يريدونه منك من أقوال باطلة، ومن أفعال فاسدة، بل ابذل -أيها الرسول الكريم- جهدك في تبليغ ما أنزل إليك من ربك، وجاهد الكافرين بهذا القرآن جهاداً كبيراً لا تكاسل معه، بأن تذكر لهم من آيات القرآن ما يزهق باطلهم ويفضح أكاذيبهم. وقد قسم العلماء الجهاد في شريعة الإسلام ثلاثة أقسام:

فهناك جهاد النفس ومعناه: منعها من الوقوع فيما نهى الله عنه، وإلزامها بالوقوف عند حدوده، وبأداء التكاليف التي كلفنا بها سبحانه، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس:٧-١٠].

والمعنى: وحق النفس، وحق من سوّاها وجعلها مستعدة لما يكملها ويصلحها ويمكنها من معرفة الخير والشر، وحق من ألهم النفس الإنسانية ما يجعلها تعرف الحق من الباطل، وهو الله -عز وجل-، لقد أفلح وظفر بالسعادة من طهّر نفسه من الذنوب والمعاصي، وقد خاب وخسر من نقصها وأخفاها بالمعاصي والآثام.

وهناك جهاد الشيطان ومعناه: مخالفته مخالفة تامة فيما يزينه للإنسان من قبائح، وما يحسنه له من رذائل. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الفرقان:٥٦].

وهناك جهاد الظالمين والمعتدين والمفسدين في الأرض، عن طريق إزالة ظلمهم، ودحر عدوانهم، والقضاء على إفسادهم في الأرض بكل الوسائل التي شرعها الله لنصرة الحق وإزهاق الباطل.

ومن الآيات القرآنية التي جمعت هذه الأقسام الثلاثة لمعنى الجهاد في شريعة الإسلام: قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩].

الحقيقة الثانية: أن الأصل في شريعة الإسلام هو السلام، أما الجهاد بمعنى القتال فأمر طارئ، لا يُلجأ إليه إلا عند مقاومة العدوان، ودحر الظلم والتخريب والبغي والعصيان، ومن الأدلة على ذلك أن لفظ "الإسلام" الذي اختاره الله -تعالى- ليكون الدين المقبول عنده، فقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران:١٩].

هذا اللفظ وهو "الإسلام" مأخوذ من مادة "السلام"، وهذان اللفظان -الإسلام والسلام- يلتقيان معًا في وجوب توفير الأمان والاطمئنان والتعاون على البر والتقوى بين الناس، الذين ينحدرون جميعًا من أصل واحد، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[النساء:١].

ولفظ السلام قد تكرر فى القرآن الكريم فى أكثر من ثلاثين موضعًا، ومما لا شك فيه أن تكرار هذا اللفظ بهذه الكثرة، وفى مناسبات متنوعة، وبأساليب متعددة، يلفت الأنظار إلى هذا المبدأ السامى الجليل، ويوقظ القلوب والعقول والمشاعر إلى غرس فضيلة الإخاء الإنسانى بين البشر، وإلى تبادل المنافع التى أحلها الله فيما بينهم، ويغرى بإشاعة روح الأمان والاطمئنان بين الأفراد والجماعات.

(أ) من بركات لفظ السلام أنه من أسماء الله الحسنى، كما فى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الحشر:٢٣].

(ب) أنه التحية التى يتبادلها أهل الإيمان فيما بينهم، بأن يقول المسلم لغيره عند لقائه به: السلام عليكم، أى: الأمان لكم ولنا. فى الحديث الشريف قال ﷺ: «إن الله جعل السلام تحية لأمتنا، وأمانًا لأهل ذمتنا».

(جـ) والمسلم خلال صلاته يقرأ الفاتحة وما تيسر معها من القرآن، ويسلم على النبى ﷺ وعلى نفسه، وعلى عباد الله الصالحين، فإذا ما فرغ من صلاته عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله، وعن شماله كذلك.

(د) والتحية التى يلقاها المؤمنون من خلقهم فى الجنة: السلام، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾[الأحزاب:٤٤]. أى: تحية هؤلاء المؤمنين من الله فى الجنة يوم يلقونه: سلام وأمان لهم من عذاب الله، وقد أعد لهم ثوابًا حسنًا وهو : الجنة.

(هـ) وتحية الملائكة للمؤمنين عند دخولهم الجنة: السلام، وقد ورد ذلك فى آيات منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾النحل:٣٢]]، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[الزمر:٧٣].

(و) وتحية الملائكة المؤمنين وهم فى الجنة: السلام، قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد:٢٣-٢٤].

(ز) والمؤمنون دعاؤهم فى الجنة التسبيح، وتحية الله وملائكته لهم وفيما بينهم: السلام، كما فى قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس:١٠]، أى: دعاء المؤمنين فى الجنة التسبيح، وتحية الله وملائكته لهم، وتحية بعضهم لبعض فى الجنة: السلام، وآخر دعائهم قولهم: الحمد لله رب العالمين.

(ح) وخطاب المؤمنين بعضهم لبعض فى الجنة: السلام. قال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:٦٢]، أى: لا يسمع أهل الجنة فيها كلامًا باطلاً، لكن يسمعون سلامًا تحية لهم، ولهم ما يشتهون فى الصباح والمساء. وقال تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾[الواقعة:٢٥-٢٦]، أى: أن أهل الجنة لا يسمعون فيها كلامًا باطلاً، ولا يتأثمون بسماعه، إلا قولاً سالمًا من هذه العيوب، وتسليم بعضهم على بعض.

(ط) وليلة القدر التى هى خير من ألف شهر، قال تعالى: ﴿سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[القدر:٥].

(ى) ودار السلام اسم من أسماء الجنة، كما فى قوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يونس:٢٥]، والمعنى: والله -عز وجل- يدعو عباده إلى جناته عن طريق الإيمان والعمل الصالح، ويهدى من يشاء من خلقه إلى صراط مستقيم.

(ك) ودعاء الرسول ﷺ الذى كان يردده كثيرًا: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحيِّنا ربنا بالسلام..».

وبذلك يتبين لكل عاقل أن شريعة الإسلام تعتبر السلام بين الناس هو الأساس الذى تقوم عليه العلاقات الإنسانية فيما بينهم، أما الجهاد بمعنى القتال، فهو أمر طارئ لا يستعمل إلا عندما تدعو الضرورة إلى ذلك.

الحقيقة الثالثة: أن جميع الغزوات وجميع السرايا التى تمت فى عهد النبى ﷺ كانت لدفع الظلم، ولإزالة العدوان، ولم تكن فى يوم من الأيام من أجل الأطماع أو البغى أو التعطش إلى سفك الدماء، أو تخويف الآمنين. والأدلة على ذلك كثيرة، منها على سبيل المثال:

(أ) في غزوة بدر -وهي أول حرب في الإسلام- كان مشركوا قريش هم الذين أشعلوها، وهم الذين تسببوا فيها، ولم يكن من المسلمين إلا قبول التحدي ورد التعدي!

كان المشركون هم الذين أشعلوها وتسببوا فيها، لسبب رئيسي سكت عنه كثير من المؤرخين، وهو: أن المشركين بعد هجرة النبي ﷺ وكثير من أصحابه إلى المدينة المنورة، صبوا نار عدوانهم وظلمهم على المسلمين الذي بقوا في مكة؛ لعدم قدرتهم على الهجرة إلى المدينة، ولايزال طغيانهم عليهم يزداد يومًا بعد يوم، حتى عيل صبرهم وطفح كيل بلائهم، وأخذوا يجأرون إلى الله -تعالى- بالدعاء ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[النساء:٧٥].

وأجاب الله تعالى- دعاء هؤلاء المسلمين الذين ظلوا في مكة ولم يستطيعوا اللحاق بإخوانهم المهاجرين، وأمر سبحانه نبيه محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار أن يسارعوا لنصرة إخوانهم المستضعفين، وقال لهم بأسلوب فيه من الحث على نصرة المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾[النساء:٧٥].

والخلاصة: أن غزوة در -وهي أول قتال بين المؤمنين والمشركين- كانت من أجل نجدة المظلومين وإغاثة الملهوفين من الرجال والنساء والولدان، الذين لم يستطيعوا الهجرة إلى المدينة المنورة، فبغى عليهم مشركو مكة، فهيأ الله -تعالى- الأسباب لنصرة هؤلاء المستضعفين في غزوة بدر.

(ب) وفي غزوة أحد لم يخرج المسلمون لقتال أحد، وإنما مشركو مكة بعد بعد عام تقريبًا من هزيمتهم في بدر، جمعوا جموعهم في أكثر من ثلاثة آلاف رجل، ومعهم حلفاؤهم من القبائل الأخرى، معهم الدفوف والمعازف والخمور، واصطحب كبراؤهم نساءهم.

وخرج الجميع وهم مصرون على محاربة المسلمين، وواصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى قرب المدينة المنورة، واجتمع المسلمون حول رسول الله ﷺ يتدبرون أمرهم: أيخرجون لقتال أعدائهم الذين اقتربوا من المدينة؟ أم يستدرجوهم إلى أزقة المدينة، حتى إذا دخلها المشركون قاتلهم الرجال في طرقاتها، وقاتلتهم النساء من فوق أسطح البيوت؟ وكان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الثاني، إلا أن الشباب كان رأيهم الخروج إلى الأعداء وقتالهم

خارج المدينة، ومازالوا يلحون على النبى فى الخروج حتى طاوعهم ﷺ، وحدث ما حدث فى هذه الغزوة من استشهاد عدد كبير من المسلمين.

(جـ) وفى غزوة الأحزاب، تجمع أكثر من عشرة آلاف رجل من قبائل متعددة، واتجهوا نحو المدينة للقضاء على الإسلام والمسلمين، وساعدهم فى ذلك بعض زعماء اليهود، وبلغ النبى ﷺ ذلك، فاستشار أصحابه فيما يصنع أمام هذا الجيش الحاقد الباغى، فأشار سلمان الفارسى بحفر خندق حول المدينة، وبدأ المسلمون بتنفيذ هذه الفكرة فى الأماكن التى يمكن للمشركين أن ينفذوا منها، ولقى المسلمون تعبًا شديدًا فى حفر الخندق، ولكن النبى ﷺ يشاركهم فى ذلك وهم ينشدون:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزل سكينة علينا	وثبّت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

ووصل المشركون إلى المدينة، وبدأ القتال بالنبال، وانتهى الأمر بهزيمة المعتدين، وارتدادهم على أعقابهم، وكان حالهم كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[الأحزاب:٢٥].

وهكذا كانت غزوات الرسول ﷺ إما لنصرة المظلوم، وإما للدفاع عن العقيدة، وعن النفس، وعن الكرامة الإنسانية، ولم تكن أبدًا للظلم أو العدوان.

الحقيقة الرابعة: أن شريعة الإسلام وضعت للقتال شروطًا ألزمت بها المؤمنين، وأمرتهم بتطبيقها، وجاءت هذه العقيدة وتلك الشروط فى آيات كثيرة، منها: قوله سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠]. ولفظ القتال معناه: محاولة الرجل قتله، والمقاتلة: محاولة كل واحد من المتعاديين قتل الآخر، وقوله تعالى ﴿ولا تعتدوا﴾ نهى عن الاعتداء بشتى صوره، ويدخل فيه دخولاً أوليا الاعتداء فى القتال. والاعتداء: مجاوزة الحد فيما أمر الله -تعالى- به، وفيما نهى عنه.

والمعنى: إن الله -عز وجل- بفضله وإحسانه يمنع عن عباده المؤمنين عدوان الملحدين والفاسقين؛ لأنه سبحانه لا يحب كل خوان للأمانة، جحود لنعم ربه.

ثم رخّص الله للمؤمنين فى الدفاع عن أنفسهم، وفى قتال أعدائهم الذين ظلموهم، وبشرهم بأنه على نصرهم لقدير؛ لأنه كتب على نفسه أن يجعل العاقبة الحسنة لعباده المؤمنين الصادقين.

ثم بيّن سبحانه بعض الأسباب التى شرع لها الجهاد لنصرة الحق، فقال: الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وبدون سبب من الأسباب، سوى أنهم كانوا يقولون ربنا وخالقنا الله -تعالى- وحده، ولولا أن الله يسلط على الطغاة من يذلهم ويردهم لعاثوا فى الأرض فساداً، ولهدموا أماكن العبادة من صوامع الرهبان ومن كنائس النصارى، ومن معابد اليهود ومن مساجد المسلمين التى يؤدون فيها صلاتهم، ولينصرن الله من ينصر دينه وأولياءه إن الله قوى عزيز.

فهذه الآيات قد بينت بوضوح وبأسلوب حكيم أن الله -تعالى- يدافع عن عباده المؤمنين، وأنه عز وجل قد أباح لهم قتل الطغاة المفسدين، الذين ظلموا أهل الإيمان وطردوهم من ديارهم، ولولا ما شرعه الله من أحكام عادلة لدحر أهل الباطل لفسدت الأرض.

الحقيقة الخامسة: أن شريعة الإسلام تحبب لأتباعها المصالحة والموادعة، وتأمرهم بقبول إنهاء الحرب وإيقافها متى طلب أعداؤهم ذلك، مادام هذا الإنهاء أو الإيقاف لا ضرر من ورائه للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦١-٦٢].

والمعنى: عليك أيها الرسول الكريم إذا كنت فى حرب مع أعدائك، ومال هؤلاء الأعداء إلى الصلح والسلام، فاقبل منهم ذلك، مادام هذا الصلح لا ضرر منه لك ولأصحابك، وفوّض أمرك إلى خالقك، ولا تخش كيدهم ومكرهم وغدرهم؛ لأن ربك هو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم. وإن أراد هؤلاء الأعداء الذين طلبوا المصالحة منك أن يخدعوك فلا تلتفت لخداعهم، بل صالحهم مع خداعهم إذا كان فى هذا الصلح مصلحة لك ولأتباعك، ولا تخف منهم، فإن الله كافيك بنصره ومعونته، فهو سبحانه الذى أمدك بوسائل النصر الظاهرة والخفية، وهو الذى أيدك بالمؤمنين الصادقين، الذين أخلصوا لدينهم وخالقهم عز وجل، والذين يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون. فالآية الكريمة تشجع النبى ﷺ على

السير فى طريق الصلح مادام فيه مصلحة للمسلمين، وتبشير له بأن النصر سيكون له حتى ولو أراد الأعداء بإظهار الميل إلى السلام المخادعة والمراوغة.

الحقيقة السادسة: أن شريعة الإسلام تجعل للحرب آدابًا لابد من التزامها والتقيد بها. ومن هذه الآداب: الوفاء بالعهود والمواثيق، فمتى عاهد المسلمون قومًا على أمر معين وفّوا به وفاء تاما. ولقد ضرب الرسول ﷺ أروع ألوان الوفاء. ومن أمثلة ذلك أنه كان من بين شروط صلح الحديبية: أن من جاء إلى المسلمين من قريش يردونه، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يردونه" . فأوفدت قريشًا أبا رافع إلى رسول الله ﷺ فوقع الإيمان فى قلبه، فقال: يا رسول الله، لا أرجع إلى قريش وأبقى معكم مسلمًا، فقال له ﷺ: «إنى لا أنقض العهد، فارجع إليهم آمنًا، فإن وجدت بعد ذلك ما فى قلبك الآن فارجع إلينا».

والخلاصة: أن الجهاد فى الإسلام لم يشرع إلا من أجل الدفاع عن الحق، ومن أجل نصرة المظلوم، ومن أجل نشر الأمان والسلام فى الأرض، ومن أجل تأديب الأشرار الذين لو تركوا بدون عقاب لفسدت الأرض.

والذين يقولون غير ذلك نرد عليهم بقوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾[الكهف:٥].

ولقد استبان لكل عاقل أن الحرب فى شريعة الإسلام ليست هى الأصل، وإنما هى استثناء من الأصل، والأصل إنما هو السلام والأمان بين الناس.

الحرب ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها، وهى محدودة بحدود الدفاع المشترك، ولا تستقدم عنه خطوة ولا تستأخر خطوة.

إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لا يناقض العدل ولا يشجع الإجرام، ولا يترك الحق مكبّل اليدين، إذا أراد الباطل أن يفتك به. إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، فهو دين عدل وإحسان معًا.

❊ ❊ ❊

«المقال الثالث»

وضَّحْتُ لك يا قداسة البابا بكل صدق وموضوعية فى مقالين سابقين، عدم صحة مسألتين نسبهما القيصر البيزنطى منذ أكثر من ستمائة سنة، فى حواره مع الفارسى المسلم عن الإسلام، وهما: زعمه أن الإسلام قد انتشر عن طريق الإكراه أو العنف، وأن الجهاد شرع للعدوان.

وذكرت لقداستك بأدلة نقلية وعقلية أن الإسلام قد انتشر عن طريق الإقناع والتفكير السليم، وأن الجهاد فى الإسلام قد شُرِّع لنصرة المظلوم وإعطاء كل ذى حق حقه.

وفى هذا المقال الثالث، سأرد على أكذوبة ثالثة، هى أقبح الأكاذيب وأشنعها، وهى: قول القيصر البيزنطى للفارسى المسلم: "أرنى ما الجديد الذى جاء به محمد فلن تجد إلا كل ما هو شر..".

وعتابنا عليك يا قداسة البابا: أنك ذكرت ذلك فى محاضرتك ولم تعلق عليه بكلمة منصفة، تبين فيها أنك لا توافق على ما قاله ذلك القيصر الموتور، وكأنك راض عن كل ما قاله.. ومادمت قد سكت عن التعليق، فاسمع من الحقائق المتعددة والبراهين المتنوعة، التى تشهد وتنادى وتقول بأعلى صوت وبأصدق بيان: إن محمداً قد جاء للإنسانية كلها بالخير كله، والفضائل كلها، وبمكارم الأخلاق جميعها، ولم يجئ بشىء من الشر.

١ – جاء محمد بالخير كله لأن الكتب السماوية السابقة قد بشرت به ﷺ، ووصفته بأكرم الصفات، وبأفضل المناقب التى تدعو كل عاقل منصف إلى اتباعه والإيمان به. قال الله – تعالى– ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف:١٥٧].

ففى هذه الآية الكريمة وصف الله –عز وجل– رسوله محمد ﷺ بجملة من الصفات السامية، وصفه –أولاً– بأنه رسول الله –تعالى– إلى الناس كافة بشيراً ونذيرًا، ووصفه– ثانيًا– بأنه نبى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين، ووصفه –ثالثًا– بأنه أمى ما قرأ ولا كتب، ولا جلس إلى معلم، ولا أخذ علمه عن أحد، ولكن الله تعالى أوحى إليه

بالقرآن الكريم الذى هو هداية الهدايات ومعجزة المعجزات، وأفاض عليه سبحانه من لدنه علومًا فيها من الحكم والأحكام ما فيها، فسبق بذلك الخلق أجمعين، وكانت أميّته ﷺ أوضح دليل على أن ما يقوله إنما هو بوحى من الله -عز وجل-.

ووصفه -رابعًا- بأن أهل الكتاب يجدون اسمه ونعته مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل، ومن أجمع ما جاء فى التوراة خاصا بالنبى محمد ﷺ ما أخرجه البخارى عن عبدالله بن عمرو -رضى الله عنهما- قال: "قرأت فى التوراة صفة النبى ﷺ: محمد رسول الله: عبده ورسوله، سمته المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا صخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، بل يعفو ويصفح".

ووصفه -خامسًا- بأنه ﷺ يأمر الناس باعتناق الفضائل وباجتناب الرذائل. ووصفه -سادسًا- بأن الله -تعالى- أنزل عليه شريعة تحل للناس الطيبات التى تصلحهم فى معاشهم، وتحرّم عليهم الخبائث التى تؤذيهم وترديهم.

ووصفه -سابعًا- بأنه ﷺ جاء إلى الناس بالشريعة السمحة التى تمتاز باليسر لا بالعسر، وباللين لا بالشدة، ثم ختم سبحانه الآية الكريمة ببيان أن الذين آمنوا بهذا الرسول الكريم ونصروه هم المفلحون.

٢- جاء محمد ﷺ بالخير كله؛ لأن أخاه فى النبوة -عيسى ابن مريم عليه السلام- بشّر به، وذكره باسمه، وأكد القرآن الكريم ذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦].

والمعنى: واذكر يا محمد لأتباعك وقت أن قال أخوك فى النبوة عيسى ابن مريم لقومه: يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقًا للكتاب الذى أنزله الله تعالى علىّ وهو الإنجيل، ومصدقًا أيضًا للكتاب الذى أنزله الله - عز وجل- على نبيه موسى من قبلى، وهو التوراة، وشاهدًا ومبشرًا بصدق رسول يأتى من بعدى اسمه «أحمد».

قال الإمام الألوسى -رحمه الله-: وهذا الاسم الجليل "أحمد" هو علم لنبينا محمد ﷺ، ففى الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «إن لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الشر، وأنا العاقب فلا نبى بعدى».

فهذه الآية الكريمة واضحة وضوح الشمس، فى أن عيسى -عليه السلام- قد بشر قومه ببعثة الرسول ﷺ، وهذه البشارة تحمل فى لفظها ومعناها أن الرسول ﷺ سيأتى للناس بالخير كله.. سيأتيهم بما يخرجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن قبائح الجهل إلى فضائل العلم، ومن رذائل الفسوق والعصيان إلى هدايات الاستقامة والإيمان.

وقد مدح الرسول ﷺ أخاه فى النبوة عيسى ابن مريم مدحًا عظيمًا، فقال: أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم الأولى والآخرة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ فقال: «لأنه ليس بينى وبينه نبى».

وكما مدح الرسول ﷺ أخاه فى النبوة عيسى -عليه السلام- مدح أيضًا أمه مريم، فقال: «أفضل نساء أهل الجنة أربعًا: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران».

٣- جاء سيدنا وشفيعنا محمد ﷺ بالخير كله؛ لأن رسالته هى خاتمة الرسالات السماوية، وبها كملت الشرائع والهدايات الإلهية، والرسل جميعًا قد أرسلهم الله تعالى برسالة واحدة فى أصولها، ألا وهى التزام إخلاص العبادة لله الواحد القهار، ووجوب التحلى بمكارم الأخلاق.

والرسالة التى هذه أصولها لا تأتى إلا بالخير، لا تأتى إلا بما يسعد البشرية، لا تأتى إلا بما يهدى العقول، ويشرح الصدور، ويصفى النفوس ويطهر من الغل والحسد والظلم والعدوان، لا تأتى إلا بما يجعل الناس -متى اتبعوا هدى الأنبياء- يعيشون فى أمان واطمئنان، وفى سعة من الرزق وفى حياة طيبة.

وصدق الله -تعالى- إذ يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧].

الرسل الكرام هم صفوة الخلق، وخيرة الله -تعالى- من عباده، وأبواب رحمته وأسباب نعمته. الرسل الكرام هم الأطهار الذين اختارهم خالقهم لتبليغ وحيه، وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن الكفر والفسوق والعصيان إلى الطاعة والعفاف والإيمان. الرسل الكرام هم الذين كلمهم الله تعالى بصفاء الفطرة ونقاء القلب وسمو النفس، وعلو الهمة، وسلامة العقل، ونظافة اليد، وطهارة المنبت،

وجمال الخَلق والخُلُق والظاهر والباطن. الرسل الكرام هم الذين عصمهم الله -تعالى- من كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق، ومع المروءة والشرف قبل النبوة وبعد النبوة. الرسل الكرام ختم الله رسالاتهم برسالة محمد ﷺ الذى كان اللبنة التى تم بها بناء الرسالات السماوية.

وقد عبر ﷺ عن هذا المعنى بقوله: «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتًا وزينه وجمله إلا موضع لبنة، فكان الناس يطوفون حول هذا البيت ويقولون: ما أجمل هذا البيت وما أحسنه إلا موضع لبنة منه، فكان الناس يطوفون حول هذا البيت ويقولون: هلاً وضعت هذه اللبنة، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين».

٤- جاء ﷺ بالخير كله، ولم يأت بشيء من الشر؛ لأن بعثته ﷺ جاءت على فترة من الرسل كما قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٩].

والمعنى: يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ لكى يبين لكم ما هو حق فى العقائد والعبادات والمعاملات والآداب، وكان مجيئه ﷺ برسالته بعد مدة طويلة من الزمن بين بعثته وبين رسالة عيسى عليه السلام، وقد فعلنا ذلك لكى لا تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، والحال أنه قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ برسالته التى تدعوكم إلى إخلاص العبادة لله -تعالى- بعد ما يقرب من ستة قرون من رسالة عيسى -عليه السلام-. وإن بعثته فى هذه الفترة كانت تستلزمها الإنسانية؛ لأن حال الإنسانية قبل بعثته كانت قد وصلت إلى النهاية فى الحيرة والبؤس والظلام والجهل، والطغيان والظلم، والحروب والقهر.

ولقد صور أمير الشعراء أحمد شوقى -رحمه الله تعالى- حال العالم قبل بعثته ﷺ تصويرًا صادقًا فى قصيدته "نهج البردة"، فقال:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم ... إلا على صنم قد هام فى صنم
والأرض مملوءة جورًا، مسخرة ... لك طاغية فى الخلق محتكم
مسيطر الفرس يبغى فى رعيته ... وقيصر الروم من كبر أصم عم
يعذبان عباد الله فى شُبه ... ويذبحان كما ضحيت بالغنم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم ... كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم

وقد ذكر الله -تعالى- الناس بهذه النعمة فى آيات كثيرة منها قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤].

والمعنى: لقد أنعم الله عل المؤمنين من العرب بنعم جليلة، وبعطايا جليلة، إذ بعث فيهم رسولاً من جنسهم، يتلو عليهم آيات القرآن الكريم، ويطهّرهم من الشرك ومن الأخلاق الفاسدة، ويعلمهم القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل بعثته لفى ضلال واضح وجهل ظاهر، وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة:٢].

والخلاصة: أن بعثة الرسول ﷺ كانت الخير العميم بعد أن ساد العالم الشر الجسيم، وكانت النور الذى أضاء مشارق الأرض ومغاربها، بعد ظلام دامس وجهل فاضح.

٥- جاء سيدنا وشفيعنا محمد رسول الله ﷺ بالخير كله، ولم يأت بشىء من الشر؛ لأن الدعوة التى كلفه الله -تعالى- بتبليغها للناس هى الخير كله، ومن المستحيل أن تشتمل على شىء من الشر.

وكل من قرأ سيرة محمد ﷺ يعلم أنه كان يُلقَّب فى قومه -منذ مطلع شبابه- بالصادق الأمين، ويكفيه فخراً ﷺ شهادة الله تعالى له بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٤]. والخُلق كما يقول الإمام الفخر الرازى -رحمه الله-: "ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأقوال والأفعال الجليلة. والشىء العظيم: هو الشىء الرفيع القدر الجليل الشأن السامى المنزلة".

والمعنى: وإنك -يا محمد- على خُلُق دين عظيم، وعلى خلق كريم، وعلى سلوك قويم، فى كل ما تتركه وتفعله من أقوال وأفعال، والتعبير بلفظ "على" يشعر بتمكنه ﷺ وبرسوخه فى كل خلق سليم، وإن القلم ليعجز عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة من ثناء من الله -تعالى- على نبيه محمد ﷺ. ورحم الله الإمام ابن كثير، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: "سأل سائل السيدة عائشة -رضى الله عنها- عن معنى هذه الآية، فقالت للسائل: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى، فقالت: إن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن".

ومعنى هذا أنه ﷺ كان اتباعه وامتثاله للقرآن أمرًا ونهيًا وعملاً سجية له، وخلقًا وطبعًا، كفل ما أمر به القرآن فعله، وكل ما نهاه عنه تركه.. هذا مع ما جلبه الله عليه من الخلق الكريم، كالحكمة، والعفّة، والشجاعة، والعدالة... وكيف لا يكون محمد ﷺ جماع كل خلق كريم، وهو القائل: «إنما بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».

ويكفيه تكريمًا وتشريفًا شهادة الله تعالى له بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

والمعنى: ما أرسلناك -أيها الرسول الكريم- بهذا الدين الحنيف وهو دين الإسلام، إلا من أجل أن تكون رحمة للعالمين من الإنس والجن، وذلك لأننا قد أرسلناك بما يسعدهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم متي اتبعوك، واستجابوا لما جئتهم به، وأطاعوك فيما تأمرهم به، أو تنهاهم عنه.

وفي الحديث الشريف: «إنما أنا رحمة مهداة». فرسالته ﷺ رحمة في ذاتها، ولكن هذه الرحمة انتفع بها من استجاب لدعوتها، أما من أعرض عنها فهو الذي ضيّع علي نفسه فرصة الانتفاع.

وقد اختار الله -تعالي- صفة الرحمة لرسالته ﷺ، ووصف الرسول ﷺ نفسه بأنه رحمة، فقال ﷺ «إنما أنا رحمة مهداة»؛ لأن هذه الصفة جماع لكل خير، ومن كانت الرحمة صفته، كان الشر بكل ألوانه بعيدًا عنه.

ولذا قال الله -تعالي- في شأنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران:١٥٩].

والمعنى: فبسبب رحمة عظيمة فيّاضة منك الله إياها يا محمد، كنت ليّنا مع أتباعك فى كل أحوالك، ولو كنت -أيها الرسول الكريم- سيء الخلق، قاسى القلب، خشن الجانب، لتفرّق أصحابك عنك ونفروا منك.. ومادمت -أيها الرسول الكريم- قد سكب الله فى قلبك الرفق والبشاشة والسماحة، فاعف عن أخطائهم، والتمس من الله أن يغفر لهم ما فرط منهم، وشاورهم فى الأمور التى تحتاج إلى مشورتهم، فإذا عزمت على إنفاذ أمر من الأمور بعد الاستشارة فامض معتمدًا على الله وحده، إن الله يحب المتوكلين.

ولقد كانت فضيلة الرحمة على رأس الصفات التى لازمت النبى ﷺ طوال حياته، لازمته فى أعصب الساعات، وفى أحرج الأوقات، وفى أشد المواقف.. ومن الأدلة على ذلك أنه بعد العدوان الشديد عليه من السفهاء بعد وصوله إلى الطائف، لم يدع عليهم بما يهلكهم، بل دعا لهم بالهداية، وقال: «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون». لازمته مع الناس جميعًا، وبيّن أن الإيمان الصادق لا يتم فى القلوب إلا إذا كانت معه فضيلة الرحمة، فقال: «لن تؤمنوا حتى تراحموا، قالوا يا رسول الله، كلنا رحيم. قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة».

لازمته فضيلة الرحمة مع أولاده، فعندما كان ابنه إبراهيم يلفظ أنفاسه الأخيرة، ضمه إلى صدره وقلبه ودمعت عيناه.. فقال له بعض أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «إنها رحمة، وإن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون».

لازمته فضيلة الرحمة مع اليتامى والمساكين، فقد قال لرجل شكا إليه قسوة قلبه: «أتحب أن يلين قلبك، وأن تدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك».

لازمته الرحمة مع الضعفاء والخدم فقال: «من كان أخوه تحت يده -أى فى خدمته- فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

لازمته ﷺ فضيلة الرحمة حتى مع الحيوان، فقال: «دخلت امرأة النار فى هرّة حبستها، أى: فى قطة حبستها، فلا هى أطعمتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض، أى: ولا هى تركتها تأكل مما يصلح لأكلها مما هو ملقى فى الأرض».

وهكذا نجد أن فضيلة الرحمة قد لازمت الرسول ﷺ، وشملت الجوانب العديدة من الحياة والأحياء. لقد رحم الصغير والكبير، ورحم القريب والبعيد، ورحم الراشد والشارد، ورحم الصديق والعدو، ورحم الإنسان والحيوان.. لقد بلغ من رحمته أنه ﷺ كان يصلى بالناس رجالاً ونساء وفى نيته أن يطيل الصلاة لأنها قرة عينه، ولكنه عندما يسمع بكاء طفل يخفف من صلاته رحمة بهذا الطفل، ورحمة بأمه حتى لا تقلق على وليدها.

ويكفيه شرفًا أن الله -تعالى- قد قال في شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[التوبة:١٢٩]. وليست فضيلة الرحمة وحدها هي التي تحلى بها الرسول ﷺ، بل جميع الفضائل والمكرمات والخيرات تحلى بها محمد ﷺ. ورحم الله الإمام البوصيري عندما قال:

وانسب إلي ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلي قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حـد	فيعرب عنه ناطـق بفـم

وبذلك يتبين لكل ذي عقل سليم: أنه من الأكاذيب الفاضحة ما قاله الإمبراطور في محاوراته مع أحد المسلمين منذ أكثر من ستمائة سنة، من أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأن الجهاد في الإسلام للعدوان، وأن محمداً ﷺ لم يأت إلا بما هو شر وغير إنساني.

وقد فصّلنا في المقالين السابقين وفي هذا المقال، أن الإسلام قد انتشر بالإقناع والاختيار، وليس بالإكراه أو القهر، وأن الجهاد في الإسلام قد شرعه الله لنصرة المظلوم وللدفاع عن النفوس والأموال والأعراض والأوطان والكرامة الإنسانية، وأن سيدنا محمد رسول الله ﷺ هو أشرف الخلق وأفضلهم، وأنه جاء للإنسانية كلهابالخير كله، وبالبر كله، وبالفضائل كلها، وأنه لم يترك بابًا من أبواب الشر إلا وقفله في وجوه الناس.

وكنا نود من قداسة بابا الفاتيكان ألا يحشر قصة هذا الامبراطور البيزنطي في محاضرته؛ لأنها لا علاقة لها بمحاضرته التي جُلّها أو معظمها عن المسيحية، أو أنه مادام قد حشرها فكان من الأليَق به وهو رجل دين وفلسفة أن يعلق عليها بما يدل على عدم صدق ما جاء فيها.

ولكن قداسته لم يفعل، فرأينا من الواجب علينا أن نذكر لقداسته ما هو حق وما هو باطل، وما هو صدق وما هو كذب؛ لأن من يسكت عن النطق بكلمة الحق والصدق فهو شيطان أخرس، والسلام على من اتبع الهدى.

❊ ❊ ❊

«المقال الرابع»

هذا هو المقال الرابع -يا قداسة البابا- الذى أوجهه لقداستكم، وسيكون عن محاضرتك التى موضوعها: "العقيدة والعقل والجامعة".

وقد تكرمت قداستك فألقيتها فى جامعة "ريجنسبرج" بألمانيا فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر ٢٠٠٦م، وقد تناولت فيها بأسلوب الأستاذ الجامعى ذكرياتك فى جامعة "بون" وقت وجود الجامعات اللاهوتية التقليدية. وكنت قداستك فخوراً بكليتى اللاهوت؛ لأنك تراها الاستخدام الصحيح للعقلانية فى مسألة العقيدة.

وإن البعض لم يوافق قداستك على ذلك، فقد تعالت أصوات بعض زملائك فقالوا: إنه توجد كليتان فى جامعتنا "العقلانية" للاهوت، تتناولان بالبحث شيئًا لا وجود له وهو "الله"!

وقد استنكرت قداستك هذا القول وقلت: بالرغم من هذا لم يكن هناك أدنى شك لدى الجميع فى أن السؤال عن "الله" وتناوله من منظور الديانة المسيحية، ويبقى فى مواجهة مثل هذا الفكر التشاؤمى المغالى لازمًا وعقلانيا، ومكملاً للمنظومة العلمية للجامعة.. ثم تحدثت قداستك بشىء من التفصيل عن النظرة الإغريقية العقلانية وعن العقيدة المسيحية فى "الله" -عز وجل-.

ثم أشرت إلى أن بعض التيارات اللاهوتية التى ظهرت فى القرون الوسطى المتأخرة، عرضت هذه العقلانية عن "الله" وتبت الرأى القائل: إننا لا نعلم عن الله سوى إرادته العادية، وله من وراء ذلك الحرية فى التصرف كما يريد، حتى وإن كان ذلك مناقضًا لكل ما فعل..".

ثم ذكرت أن البروفيسور خورى أبرز بحثًا لأحد المستشرقين الفرنسيين أشار فيه إلى أن الفيلسوف العربى ابن حزم يقول: "إن الله ليس ملزمًا بكلامه، وليس هناك ما يجبره على هذا الإيحاء إلينا حتى بالحقيقة، إن أراد الإنسان عابدًا للأصنام".

وقد يفهم من هذا الكلام أن هناك من علماء اللاهوت من يرى أن السؤال عن "الله" لازمًا وعقلانيا من منظور الديانة المسيحية، وأن قداستك تؤيد هذا الاتجاه العقلانى، حتى يبقى فى مواجهة الفكر التشاؤمى الذى يقول: "الله لا وجود له".

وأن هناك من علماء اللاهوت من يرى أن البحث عن الله بالطرق العقلانية لا لزوم له ولا فائدة منه، وأشار بعض المستشرقين إلى أن الفيلسوف العربى ابن حزم يميل إلى ذلك.

وإنى فى هذا المقال -يا قداسة البابا- أريد أن أوضح لك بطريقة مجملة مفهوم العقيدة فى شريعة الإسلام، ومنزلة العقل الإنسانى فى هذه الشريعة فأقول:

العقيدة : اسم للإيمان ببعض الآراء والمبادىء والأفكار التى استقرت فى القلب لأسباب متنوعة، وصارت كلها كأنها جزء من كيان الإنسان، يدافع عنها كما يدافع عن ذاته. يقال: اعتقد فلان فى كذا، أى: آمن وصدّق به، فالاعتقاد والإيمان والتصديق ألفاظ متقاربة فى معناها.

فالعقيدة كما جاء فى المعجم الوسيط جـ٢ ص٦١٤: "الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، وهو فى الاصطلاح الدينى: ما يقصد به الاعتقاد دون العمل، كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل".

والعقيدة الدينية: حاجة نفسية مهيمنة على الإنسان، ولا يستطيع أحد أن يحيا الحياة النفسية السوية بدونها، والذين يزعمون أنهم قد حرروا أنفسهم من العقائد، يزعمون ذلك فى الظاهر فقط؛ لأنهم فى قرارة أنفسهم يؤمنون بخرافات وأباطيل وشهوات وأطماع، ويعتقدون لجهلهم أنهم على الحق، وأن غيرهم من العقلاء على الباطل.

والخلاصة: أن العقيدة الدينية ضرورة نفسية تستلزمها الفطرة الإنسانية، وهى مسيطرة على عقل المرء وشعوره ووجدانه؛ لأنها مشبعة لميوله الطبيعية والشعورية والعقلية، وهى ضرورة تُطلب، فإذا لم توجد اختُرِعت، وكل إنسان له عقيدته التى يدافع عنها حتى ولو كانت فى ذاتها عقيدة باطلة ولا أساس لها، لا من النقل ولا من العقل ولا من المنطق.

والدليل على أن الإنسان يدافع عن عقيدته حتى ولو كانت باطلة، أنك ترى القرآن الكريم فى آيات كثيرة منه، قد أخبرنا أن الرسل الكرام عندما دعوا أقوامهم إلى الدين الحق المتمثل فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وإلى التحلى بمكارم الأخلاق، ما كان من أكثر هؤلاء الأقوام إلا محاربة هؤلاء الرسل الكرام، ووصفهم تارة بالجنون، وتارة بالسفاهة، وتارة بالضلال، وتارة بغير ذلك من القبائح.

والعقيدة السليمة هى التى أوحاها الله -تعالى- إلى رسله الكرام، وأمرهم بتبليغها إلى الناس، وتتمثل فى الإيمان العميق بوحدانية الله -عز وجل-، وفى صدق رسله الكرام، وفى أن يوم القيامة حق.

قال الله -تعالى-: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]. وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

أي: الإيمان الصادق والعقيدة السليمة يكمُلان عندما يؤمن الإنسان إيمانًا راسخًا بوحدانية الله وبأنه الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، وبأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، ويؤمن أن لله ملائكة مقربين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويؤمن بأن الله تعالى قد أنزل الصحف على إبراهيم، والزبور على داود، والتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والقرآن على محمد -صلوات الله عليهم جميعًا-.

ويؤمن بأن الرسل الكرام -وعلى رأسهم إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ- قد بلّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ويؤمن بأن يوم القيامة حق، وأنه لا ريب فيه، وأن الحساب حق، وأن الجنة حق، وأن النار حق، ويؤمن بتقدير الله للأشياء كلها، وأن ما قدره الله لا بد أن يكون.

هذه هي العقيدة السليمة المتمثلة في دين الإسلام، بمعنى إسلام الوجه لله عز وجل، وهو الدين الذي ارتضاه لعباده فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥]. ويجب أن يكون معلومًا أن الإسلام بمعنى إخلاص العبادة لله هو دين جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فنوح -عليه السلام- الذي قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس:٧٢]، وإبراهيم -عليه السلام- قال له ربه أسلم، فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[البقرة:١٣١]، وموسى -عليه السلام- قد قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس:٨٤]، وعيسى -عليه السلام- عندما أحس من قومه الكفر قال: من أنصارى إلى الله؟ ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:٥٢].

وهكذا جميع الرسل جاءوا بدين واحد وبعقيدة واحدة هى الإسلام، أى: إسلام الوجه لله -عز وجل- وإفراده بالعبادة والطاعة والخضوع، والإقرار بأنه رب العالمين، وبأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأما كلمة العقل فتأتى فى اللغة العربية بمعنى: الفهم وقوة الإدراك، أو بمعنى المنع والحبس. يقال: عقل فلان المسألة: إذا فهمها فهمًا سليمًا وأدرك ما فيها من أصول وفروع، ويقال: عقل الرجل دابته: إذ ربطها بالعقال ليمنعها من القيام، ويحبسها عن السير.

وسمى العقل بهذا الاسم؛ لأنه هو أداة التفكير والتأمل والمحاورة، والحكم على الأمور بالحكم الذى يراه مناسبًا، ولأنه يمنع الإنسان من الوقوع فى الخطأ، ويحبسه عن ارتكاب ما نهى الله عنه.

فالعقل هو الجوهرة الثمينة التى منحها الله للتفكير والاستدراك، وتركيب التصورات والتصديقات، وتمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والفضائل من الرذائل.

والعقل هو اللطيفة الربانية التى بوجودها فى الإنسان يكون التكليف والثواب والعقاب، فلا تكليف ولا مسئولية لإنسان زال عقله، وما من عبادة أو معاملة أو تجارة أو غير ذلك من ألوان التصرفات الإنسانية إلا ويُشتَرَط فى صحتها البلوغ والعقل.

ثم نزه سبحانه ذاته عن الشبيه والمثيل، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، أى: ليس مثله -عز وجل- شىء، لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، وهو السميع لكل أقوال خلقه، البصير بما يسرونه ويعلنونه.

وفي الحديث الشريف: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في ذاته، فإنكم لن تقدروه سبحانه قدره، وإن التفكير في ذات الله تعالي -بمعني التفكير في هيئته عز وجل- وفي كيف وجد...إلخ، تفكير يؤدي إلي الحيرة وإلي الأوهام التي نهي الله عنها، أما التفكير في مخلوقات الله وفي نعمه وفي عباده فهو التفكير السليم، الذي يهدي إلي الحق والخير وإلي الصراط المستقيم.

إن الإسلام يجعل المقصد الأسنى من التفكير: إيقاظ العقل، لذلك يستعمل وظيفته فى معرفة نعم الله -تعالى- على الناس، وفى هداية الإنسان إلى قوانين الحياة، وإلى عقل الوجود، وإلى سنن الكون، وإلى حقائق الأشياء، وإلى معرفة كل ما هو حق وخير وبر وجميل بأدلة عقلية حكيمة، والمتدبر للقرآن الكريم يرى كثيرًا من آياته تسوق الأدلة العقلية الباهرة على وحدانية الله -تعالى- وعلى أن يوم القيامة حق، وعلى أن الرسل الكرام قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، وعلى أن هذا القرآن من عند الله عز وجل.

والأدلة العقلية على وحدانية الله -تعالى- تأتى تارة عن طريق التحدى، كما فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[لقمان:٢١].

أى: هذا الكون بأرضه وسمائه وبحاره وجباله، وإنسه وجنه، وحيواناته وزروعه... هذا الكون الجميل بجميع مخلوقاته، الله -عز وجل هو الذى أوجده وحده بقدرته، فأخبرونى يا من عبدتم أصنامًا لا تضر ولا تنفع ما الذى أوجدته هذه الأصنام؟ إنها لم توجد شيئا فكيف رضيت عقولكم أيها المشركون بعبادتها.

إن كل إنسان عنده القليل من العقل السليم ينفى المساواة بين الخالق لكل شىء، وبين المخلوق الذى لم يخلق شيئًا، وشبيه أيضًا بهذه الآيات فى إيراد الأدلة العقلية على وحدانية الله وقدرته، عن طريق التحدى السافر للمشركين فى قوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل:٥٩-٦٤].

وإن كل إنسان عنده سلامة العقل وعنده الفطرة النقية، عندما يتأمل هذه الآيات لينادى بأعلى صوته بأن الله -تعالى- وحده هو الواحد القهار، وهو الذى لا معبود بحق سواه.

وتارة تأتى الأدلة العقلية على واحدانية الله -تعالى- عن طريق ضرب الأمثال، كما فى قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٢٩].

والمعنى: إن مثل من يعبد آلهة سوى الله كمثل عبد مملوك لجماعة من الناس متنازعين

فيما بينهم، وهذا العبد ممزق بينهم؛ لأن أحدهم يقول له قف والآخر يقول له اجلس.. وهو حائر بينهم.. هذا هو حال المشرك، أما حال المؤمن، فمثله كمثل عبد مملوك لسيد واحد، وليس لغيره سلطان عليه، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة، وسيده يكافئه على إخلاصه وطاعته مكافأة جزيلة.

فالمقصود بهذه الآية الكريمة: بيان ما عليه الإنسان المشرك من ضلال وحيرة وتمزق، وما عليه الإنسان المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان.

وتارة يسوق القرآن الكريم أدلته العقلية على وحدانية الله -عز وجل- عن طريق بيان أن هذا الكون البديع المتقن لا يصلح أن يكون بهذه الصورة البديعة المحكمة الجميلة، إلا إذا كان خالقه إلهًا واحدًا، وهو الله الذى أحسن كل شيء خلقه.

ومن الآيات التى أكدت هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء:٢٢].

والمعنى: لو كان فى السموات والأرض آلهة أخرى سوى الله -عز وجل- لفسدتا ولخرجتا عن نظامهما البديع، الذى لا خلل فيه ولا اضطراب، وذلك لأن تعدد الآلهة يلزمك التنازع والتغالب فيما بينهم، يختل نظام هذا الكون ويضطرب الأمر ويعم الفساد.. ولما كان الشاهد غير ذلك، إذ كل شيء فى هذا الكون يسير بنظام محكم دقيق، دل على أن لهذا الكون كله إلهًا واحدًا قادرًا حكيمًا لا شريك له.

وشبيه بهذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[المؤمنون:٩١].

أما الأدلة العقلية التى ساقها القرآن الكريم على أن يوم القيامة حق، وأن الناس سيحاسبون على أعمالهم دون أن تظلم نفس شيئًا، هذه الأدلة كثيرة ومتنوعة.

ومنها قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ

تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:٧٧-٨٣].

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات، أن رجلاً من المشركين جاء إلى النبي ﷺ وفي يد هذا الرجل عظم رميم، فجعل يفتته وينفخ به في وجه النبي ﷺ ويقول له: يا محمد، أتزعم أنني إذا صرت مثل هذا الفتات، أن ربك سيبعثني ويعيدني إلى الحياة مرة أخرى؟ فقال له ﷺ: «نعم سيميتك الله، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار»، ونزلت هذه الآيات.

والمعنى: أَبَلَغَ الجهل والغباء بهذا الإنسان أنه يعلم أنا أوجدناه بقدرتنا من ماء مهين، وأننا قادرون على إعادته إلى الحياة مرة أخرى بعد موته؟ إنه لو كان عاقلاً لأدرك ذلك بكل يسر، وأن هذاالإنسان الجاهل المغرور قد ضرب لنا مثلاً بالتراب ونسي قدرتنا على كل شيء، نسي أننا قادرون على أن نوجد من الشيء الأخضر نارًا، بأن يقط أحدكم غصنًا من شجر المرخ وآخر من شجر العفار ويضرب أحدهما فتتولد منهما النار التي تنتفعون بها في كثير من أحوال حياتكم.

إذًا، فالله -تعالى- القادر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من المائية المضادة للنار، كان سبحانه أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها.. هذا مثال للأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم على أن يوم القيامة حق، وعلى أن هذا اليوم آت لا ريب فيه، إلا إن علم وقت وقوعه عند الله -تعالى-، وهناك عشرات الأمثلة من الأدلة على أن يوم الحساب آتٍ لا ريب فيه، ذكرها القرآن الكريم في مواطن أخرى من سوره.

وأما الأدلة العقلية على أن الرسل الكرام قد بلغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، فقد ساق القرآن الكريم الكثير منها، ومن هذه الأدلة أن كل رسول قد ناقش قومه مناقشة عقلية تدل على صدقه، وعلى أنه قد جاء لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وأنه لا يطالبهم بأي أجر على دعوته لهم.

وفي سورة الشعراء نجد عددًا من الأنبياء الكرام بيَّن كل واحد منهم لقومه أنه ما جاء إلا

لسعادتهم، وأنه ما يريد إلا صلاح أمرهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٤١-١٥٧].

ومن الأدلة العقلية الباهرة التى تشهد بأن هذا القرآن الكريم هو كلام الله -تعالى- وليس من كلام البشر، وأنه المعجزة الكبرى التى تشهد بصدق خاتم الرسل وإمامهم محمد ﷺ.

من هذه الأدلة العقلية التى تحدى بها البشر جميعًا بصفة عامة، وتحدى بها المعارضين فى أنه كلام الله بصفة خاصة: مطالبتهم بمثل هذا القرآن فعجزوا، فتحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا، وفى نهاية المطاف تحداهم بأن يأتوا ولو بأصغر سورة من مثله فلم يستطيعوا.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[البقرة:٢٣-٢٤].

هذه يا قداسة البابا هى العقيدة الدينية الصحيحة التى جاء بها محمد ﷺ من عند ربه، تتمثل فى إخلاص العبادة لله الواحد القهار، ووجود التحلى بمكارم الأخلاق، من صدق فى القول، ومن صلاح فى العمل، ومن اعتدال فى السلوك، ومن استقامة على طريق الحق والفضائل.

أما العقل فهو آساس التكليف، فلا تكليف إلا للعقلاء، الذين يميزون بين الحق والباطل، وبين الفضائل والرذائل، إلا أن العقل فى شريعة الإسلام له حدود، ويجب أن يقف عندها بالنسبة للغيبيات التى لا يعلم كنهها إلا الله -عز وجل- كما قال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[الجن: ٢٦-٢٨].

ونسأل الله -عز وجل- أن يهدينا جميعًا إلى الصراط المستقيم.

* * *

«المقال الخامس»

هذا هو المقال الخامس ـ والأخير ـ ياقداسة البابا الذى أحب أن أوجهه إلى قداستك بعد أن حدثتك فى المقال الأول عن أن الإسلام قد انتشر عن طريق الاقناع والاختيار، وليس عن طريق الإكراه والإجبار، كما زعم الجاهلون.

وبعد أن حدثتك فى المقال الثانى عن أن الجهاد فى الإسلام قد شرع للدفاع عن النفس والمال والدين والكرامة الإنسانية، ولم يشرع للعدوان على الآمنين، كما قال من فى قلوبهم مرض.

وبعد أن حدثتك فى المقال الثالث عن أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أتى للإنسانية بكل خير، وبكل ماهو حق، وبكل ماهو بر،وأن ماقاله القيصر البيزنطى من أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يأت إلا بالشر هو قول باطل وبعد أن حدثتك فى المقال الرابع عن العقيدة فى شريعة الإسلام، وعن أن الإسلام دين يحترم العقل الإنسانى، ويجعله أساسا للتكليف، فلا تكليف ولا مسئولية على غير العقلاء.

وفى هذا المقال الخامس ـ والأخير ـ أحب أن أوضح لقداستك منزلة الحوار فى شريعة الإسلام بعد أن رأيتك فى محاضرتك التى ألقيتها فى إحدى الجامعات الألمانية فى السابع عشر من شهر سبتمبر سنة٢٠٠٦م، تؤكد أهمية الحوار وتقول ـ قداستك ـ فى ختام هذه المحاضرة: وهكذا ينبغى لنا أن ندعو للحوار بين الحضارات، فى رحابة العقلانية الواسعة.

وتقول بعبارة اخرى: وعلينا أن ندعو للحوار بين الحضارات فى إطار العقلانية الرحبة وتقول قداستك فى عبارة ثالثة: والأمر يتطلب الوصول إلى حوار صريح مع مختلف الثقافات وهذه إحدى المهام الكبرى للجامعات.

وإنى ـ ياقداسة البابا ـ أؤيدك كل التأييد فى وجوب فتح باب الحوار بين الثقافات والحضارات والهيئات العلمية والدينية،على أوسع نطاق،

وسيكون حديثى معك ـ قداسة البابا ـ فى هذا المقال الخامس والأخير مقصورا على مايأتى:

أ ـ أهمية الحوار ـ ب ـ أسس الحوار ـ جـ ـ مفردات الحوار

أ ـ أما أهمية الحوار فتتجلى فى أنه مادامت هناك حياة وأحياء فلا بد أن يكون هناك

حوار فيما بينهم، إذ لايستطيع انسان أن يعيش فى عزلة عن غيره، وإنما هو فى حاجة إلى غيره فى بيعه وفى شرائه، فى أخذه وفى عطائه، فى بيان فكره، وآرائه. فالحياة من مستلزماتها الأساسية: الحوار والنقاش والجدال والخلاف بين الأفراد، وبين الجماعات، وبين الدول، وبين الشعوب، بين المتخصصين فى الجوانب الدينية، أو السياسية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية، أو العلمية، أو غير ذلك من مختلف التخصصات والاتجاهات.

ولقد أشار القرآن الكريم فى كثير من آياته، إلى أن الحوار بين الناس، من المقاصد الأساسية التى لاغنى لهم عنها فى حياتهم،

ومن هذه الآيات قوله ـ عز وجل ـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

والمعنى: ياأيها الناس إنا أوجدناكم جميعا من أب واحد ومن أم واحدة، هما آدم وحواء، فأنتم جميعا تنتسبون إلى أصل واحد، وجعلناكم عن طريق التناسل شعوبا كثيرة العدد، وقبائل تتفرع عن هذه الشعوب.

واقتضت حكمتنا أن نجعلكم كذلك: ليعرف بعضكم بعضا، ولتتواصلوا فيما بينكم، ولتتعاونوا على قضاء مصالحكم، وتحقيق مطالبكم، ولتتحاوروا فيما يهمكم من شئون حياتكم، وأمور دنياكم.

واعلموا أيضا أن الله ـ تعالى ـ عليم بكل أحوالكم، خبير بما تكتمونه أو تعلنونه من أقوال أو أفعال.

ومما يدل دلالة واضحة على أهمية الحوار، أنك تقرأ القرآن الكريم، فترى على رأس الأساليب الحكيمة والبليغة التى استعملها القرآن الكريم لاحقاق الحق، وإبطال الباطل، أسلوب الحوار والجدال والمناقشة العقلية، التى تجعل كل ذى عقل سليم، يؤمن ايمانا راسخا، بأن لهذا الكون إلها واحدا، قادرا عليما، حكيما، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

كما يدل على أهمية الحوار، أن مادة القول وما اشتق منها، كقال، وقل، وقالوا،هذه المادة التى تدل على التحاور، والجدال، والمناقشة، والمراجعة، بين الناس فى أمور كثيرة من شئون

دينهم ودنياهم، قد تكررت في القرآن الكريم مئات المرات، فمثلا لفظ قال قد تكرر في القرآن الكريم اكثر من خمسمائة مرة، ومن ذلك قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

ولفظ قل تكرر في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة، ومن ذلك قوله ـ سبحانه ـ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[الأنعام:١٩].

ولفظ قالوا قد تكرر ـ أيضا ـ في القرآن أكثر من ثلاثمائة مرة، ومن ذلك قوله ـ عز وجل ـ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[البقرة:١١٦-١١٧].

والخلاصة: أن الحوار بين الناس في أمور دينهم ودنياهم، من الأمور اللازمة لهم لزوم الطعام والشراب، وما يشبههما من ضرورات الحياة.

ب ـ وأما أسس الحوار وأصوله التي يجب أن يقوم عليها فمن أهمها:

١ ـ الصدق: ولقد ساق القرآن الكريم ألوانا من المحاورات التي دارت بين الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وبين أقوامهم.

وعندما نتدبر هذه المحاورات نرى أن الرسل الكرام، لم ينطقوا إلا بالصدق الذي لا يحوم حوله كذب أو ريبة لنستمع على سبيل المثال ـ إلى جانب من المحاورات الطويلة التي دارت بين موسى ـ عليه السلام ـ وبين فرعون. لقد قال فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ خلال إحدى المحاورات: يا موسى: من ربكما؟ فأجابه موسى ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[طه:٥٠].

أي: قال له موسى ـ عليه السلام ـ يا فرعون، ربنا جميعا هو الله، الذي أعطى كل

مخلوق من مخلوقاته، الصورة التى تناسبه، والهيئة التى تتحقق معها منفعته ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التى خلقه من أجلها، وأمده بالملكات وبالوسائل التى تحقق هذه الوظيفة.

ولا شك أن هذا الجواب من موسى ـ عليه السلام ـ على فرعون، هو عين الصدق والحق.

ثم وجه فرعون إلى موسى ـ عليه السلام ـ سؤالا آخر فقال له: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، أى: قال فرعون لموسى ـ عليه السلام ـ: أخبرنى ما حال الأقوام الذين سبقونى؟

فأجابه موسى ـ عليه السلام بقوله: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أى: قال موسى ـ عليه السلام ـ لفرعون: علم أحوال الأمم الماضية محفوظ عند ربى وحده فى كتاب هو اللوح المحفوظ، واعلم يا فرعون أن ربى لا يخطىء فى علمه، ولا ينسى شيئا.

ولا شك أن هذا الجواب ـ أيضا ـ من موسى على فرعون، يمثل أسمى ألوان الصدق والحكمة وهكذا الرسل الكرام يردون على من يحاورهم بالرد الصادق، والحق الناصح.

٢ـ الموضوعية: ونقصد بها عدم الخروج عن الموضوع الذى هو محل النزاع والحوار لأن آفة كثير من الناس أنهم إذا ناقشوا وحاوروا غيرهم فى موضوع معين، تعمدوا أن يسلكوا ما يسمى فى هذه الأيام بخلط الأوراق.

وإنك لتقرأ القرآن الكريم، فترى الرسل الكرام وهم يحاورون أقوامهم، لا يخرجون فى ردهم عليهم عن صميم موضوع الحوار.

واستمع ـ على سبيل المثال ـ إلى القرآن الكريم، وهو يقص علينا ما قاله قوم نوح ـ عليه السلام ـ له، وما رد به عليهم.

لقد دعاهم إلى إخلاص العبادة لله ـ تعالى ـ وحده، فقالوا له بكل تطاول واستهزاء: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، فيرد عليهم بهذا الرد الحكيم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦٢].

وقوم هود ـ عليه السلام ـ يدعوهم نبيهم هود ـ أيضا ـ إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام،

فيقولون له فى حوارهم معه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[الأعراف:٦٦]، فيرد عليهم بهذا الرد الحكيم وهو يحاورهم فيقول لهم:﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[الأعراف:٦٧-٦٨].

وهكذا نجد الرسل الكرام وهم يحاورون أقوامهم، يرشدونهم إلى طريق الحق بأبلغ أسلوب، وبأحكم بيان، ولا يخرجون فى حوارهم معهم عن موضوع الحوار، بل يسلكون معهم هذا الطريق الحكيم، ألا وهو التزام الموضوعية عند خلافهم مع غيرهم فى مسألة من المسائل الدينية أو الدنيوية، وهذا الالتزام للموضوعية هو أهم أصول الحوار السليم.

٣- أن يقصد بالحوار الوصول إلى الحق والصواب، وليس التباهى أو طلب الشهرة. وذلك لأن العقلاء فى حوارهم فيما بينهم لا يقصدون إلا الوصول إلى الحقيقة، حتى ولو كان هذا الوصول على يد الطرف المخالف، هذا ما نراه واضحا فى اختلاف الصحابة، وفى حوارهم فى كثير من المسائل والقضايا.

ومن أمثلة ذلك: تلك المحاورة التى دارت بين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فى مسألة جمع القرآن، بعد وفاة النبى ﷺ، فقد توقف أبو بكر فى أول الأمر، فلما أقنعه عمر برأيه، ما كان من أبى بكر إلا الموافقة على رأى عمر..

والأمر على عكس ذلك فى قتال المرتدين الذى فرقوا بين الصلاة وبين الزكاة، وقالوا: نصلى ولا نزكى، وأصر أبو بكر على قتالهم، بينما عارض عمر فى قتالهم فى أول الأمر، فلما تبين له بعد المحاورة أن رأى أبى بكر هو الصواب، رجع إلى رأى أبى بكر.

وهكذا العقلاء يكونون عند الحوار فى طلب الوصول إلى الحق كناشد الضالة - كما يقول الإمام الغزالى - لا فرق عندهم فى أن يحصل على هذه الدابة الشاردة فلان أو فلان، وإنما الذى يهمهم هو الحصول عليها.

ولقد أراد عمر - رضى الله عنه - فى إحدى خطبه أن يحدد المهور فى الزواج، فردت عليه امرأة وقالت كيف ذلك يا عمر وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ

وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾[النساء:٢٠]، فما كان من عمر ـ رضى الله عنه ـ إلا أن رجع عن رأيه وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

ورحم الله الإمام الشافعى فقد قال: ما حاورت أحدا إلا وتمنيت أن يظهر الله الحق على لسانى أو على لسانه.

٤ـ التواضع: وهذه الفضيلة تعد من ألزم اللوازم لنجاح الحوار، بينما التعالى والغرور بين المتحاورين يؤدى إلى سد الأبواب المفتوحة.

ولقد ساق لنا القرآن الكريم ألوانا من الحوار المبنى على التواضع فكانت نتيجته النجاح والسداد.

انظر ـ على سبيل المثال ـ للحوار البديع الذى دار بين نبى الله سليمان عليه السلام وبين الهدهد، إن سليمان ـ عليه السلام ـ يتفقد جنده فلا يرى من بينهم الهدهد فيقول: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾[النمل:٢٠-٢١].

ويأتى الهدهد من رحلته بعد قليل فيقول لسليمان عليه السلام وهو الملك النبى بكل شجاعة: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين،انى وجدت إمرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم،

وهكذا نرى الجندى الصغير فى الدولة التى يظلها العدل والإيمان، لايمنعه صغره أن يرد على الحاكم الكبير وهو يحاوره، وان يدافع عن نفسه بكل حرية وشجاعة، ونرى أن الحاكم الكبير يقابل الرد عليه من الصغير بكل تواضع، ويفسح له المجال فى أن يدلى بكل حججه، وأن يضعها موضع التحقيق والاختبار..

إن الحوار الذى يقوم على التواضع والاحترام المتبادل بين الأطراف،يوصل فى الأعم الأغلب إلى النجاح، أما الحوار الذى يكون مبعثه الغرور والتعالى،فمن المستبعد أن يأتى بنتيجة تؤدى إلى الوفاق.

والعقلاء عندما يرون المحاورة مع المغرورين تؤدى إلى الإفساد لا إلى الإصلاح، يبتعدون

عنها، ويفوضونأامرهم إلى الله تعالى ولسان حالهم يقول: جلوا صارما، وأتوا باطلا، وقالوا أصبنا، فقلنا نعم.

جـ ـ هذه هي بعض أسس الحوار وأصوله، وقد فصلنا الحديث عنها في كتابنا أدب الحوار في الإسلام. أما مفردات الحوار في شريعة الإسلام، فتمتاز باتساع دائرتها، ووضوح قضاياها، وشمولها لما لايحصى من المسائل.

ومن هذه المفردات والموضوعات والمسائل والنماذج التي وردت في القرآن الكريم:

١ ـ حوار بين الخالق عز وجل وبين بعض مخلوقاته، ونقصد بهذا اللون من الحوار: ما قصه القرآن علينا من أن الله تعالى قد قال لبعض عباده أقوالا بكيفية لايعلمها إلا هو ـ عز وجل ـ كسؤاله ـ عز وجل ـ لرسله يوم القيامة وهو العليم بكل شيء، ماذا كان جواب أقوامكم عليكم حينما دعوتموهم إلى اخلاص العبادة لي وحدي؟ وقد جاء ذلك في قوله ـ تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩].

أي: اذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم يجمع الله رسله الكرام يوم القيامة فيسألهم بماذا أجابكم أقوامكم؟ وهنا يجيب الرسل إجابة كلها الأدب مع خالقهم عز وجل، فيقولون: ياربنا لاعلم لنا يذكر بجانب علمك المحيط بكل شيء، وأنت وحدك الذي تحكم بيننا وبينهم، بمقتضى عدلك وكرمك.

كذلك من المحاورات التي دارت بين الخالق عز وجل وبين رسله الكرام، قوله عز وجل لعيسى ابن مريم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٦-١١٨].

والمقصود من هذه المحاورة: توبيخ الكفرة من قوم عيسى عليه السلام، وتبكيت كل من نسب إلى عيسى وأمه مريم ما ليس من حقهما، وفضيحة الضالين على رؤوس الاشهاد يوم القيامة؛ لأن عيسى عليه السلام سينفى أمامهم أنه قال شيئا من ذلك، ولاشك أن النفى بعد السؤال، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ـ أبلغ فى التكذيب.

وقد أجاب عيسى عليه السلام بأبلغ إجابة وبأوضح بيان حيث قال أأنزهك يا إلهى عن أن أقول هذا القول، فانه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به.

ثم أضاف عيسى عليه السلام إلى هذا الأدب العالى فى الجواب: اظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه عز وجل حيث قال: إن كنت قلت هذا القول فانت تعلمه، ولايخفى عليك منه شيء، وبعد هذا التنزيه من عيسى عليه السلام لخالقه عز وجل وبعد هذا الاظهار للضعف أمام بارئه،بصرح بما قاله لقومه فقال: انى يا إلهى ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وإنى كنت شاهدا عليهم، فلما قبضتنى إليك، ورفعتنى إلى سمائك، كنت انت وحدك الحفيظ عليهم.

ثم فوض عيسى عليه السلام الأمر كله إلى خالقه فقال: إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ثم ختم سبحانه هذه المحاورة الحكيمة بقوله: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[المائدة:١١٩].

وتأمل معى أيها القارئ الكريم هذه الآيات الكريمة مرة ومرات، وقل لى بربك: هل تجد حوارا فيه من الفضل العظيم لمن رضى الله عنهم ورضوا عنه، وفيه من الأدب الرفيع من عيسى عليه السلام مع خالقه سبحانه وتعالى كهذا الحوار؟

إن أمثال هذه المحاورات الحكيمة التى تزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، قد تكررت فى القرآن الكريم.

فهناك محاورات بين نوح وخالقه، بعد أن رأى نوح ابنه وقد ابتلعته أمواج الطوفان، فيقف ضارعا ومستسلما ويقول: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾[هود:٤٥].

أي: يارب إن ابنى من أهلى وهو قطعة منى، فاسألك أن ترحمه برحمتك الواسعة..

واكتفى نوح عليه السلام بقوله: ﴿رب إن ابنى من أهلى﴾ ولم يصرح بمطلوبه وهو طلب النجاة من العذاب لابنه، تأدبا مع خالقه، وحياء منه، واعتقادا بأنه سبحانه عليم بما يريده،وهذا لون من الأدب السامى سلكه الرسل الكرام فى خطابهم مع خالقهم، ومن أولى بذلك منهم؟!

وهناك محاورات دارت بين ابراهيم عليه السلام وبين خالقه عز وجل، ومنها قول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، أى يارب أرنى كيف تعيد الحياة إلى الموتى؟

فيجيبه خالقه عز وجل أولم تؤمن؟ أى قال الله لابراهيم: أولم تؤمن يا ابراهيم بقدرتى على كل شىء؟

فيقول إبراهيم: ﴿ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾، أى قال ابراهيم بلى يارب انا مؤمن إيمانا تاما بقدرتك، ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى إيمانا بقدرتك عن طريق المشاهدة..

فأجاب الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، أى: قال الله ـ تعالى ـ لنبيه ابراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠] ، أى: ثم قل تعالين بإذن الله يأتينك سعيا، أى: يأتينك إتيانا سريعا واعلم أن الله عزيز حكيم.

والمقصود بهذه المحاورة: إظهار أكمل الأدلة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعلى وحدانيته، وبيان أنه ـ سبحانه ـ يجيب سؤال الأخيار ليزدادوا إيمانا على إيمانهم، ويفتح بابه أمامهم، لكى يسألوا عما يريدون السؤال عنه،بل لقد فتح الله ـ تعالى ـ بابه للحوار حتى مع إبليس، وقد ورد ذلك فى سور متعددة، منها قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ

لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴿١٧﴾ قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ [الأعراف:١١-١٨].

ففى هذه الآيات الكريمة ورد لفظ قال ست مرات، منها ثلاث مرات القائل هو الله عز وجل ـ وثلاث أخرى القائل هو إبليس. وهى محاورات تدل على أن الله ـ تعالى ـ قد فتح بابه للحوار مع عباده، فضلا منه وكرما، لكى يزدادوا إيمانا على إيمانهم، ولكى يأخذوا منها العبر والعظات، ولكى يتعلم العقلاء من هذه المحاورات الحكيمة ما يسعدهم فى حياتهم، وما يهديهم إلى الصراط المستقيم.

٢ـ كذلك من المحاورات التى وردت فى القرآن الكريم فى مئات الآيات القرآنية تلك المحاورات التى دارت بين الرسل وأقوامهم، وهذه المحاورات وردت فى عشرات المواضع من القرآن الكريم، ومنها: ما ساقه القرآن الكريم على ألسنة الرسل بصفة عامة، ومنها ما قصه القرآن على لسان كل نبى بصفة خاصة.

فمن المحاورات التى بين الرسل وأقوامهم بصفة عامة قوله ـ تعالى ـ:

﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴿٩﴾ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴿١٠﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١١﴾ وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴿١٢﴾ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴿١٣﴾ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾إبراهيم:٩-١٢].

فهذه الآيات الكريمة تعطينا صورة واضحة للمحاورات التي دارت بين الرسل وأقوامهم بصفة عامة، ونرى منها: إرشاد الرسل أقوامهم إلى الحق، بأسلوب حكيم، كما نرى منها موقف الأقوام السيء من رسلهم.

أما المحاورات التي دارت بين كل رسول مع قومه بصفة خاصة فما أكثرها، ونكتفي هنا بنموذج واحد من المحاورات التي حدثت بين خطيب الأنبياء شعيب ـ عليه السلام ـ وبين قومه، ويقص القرآن الكريم بأسلوبه البليغ الحكيم ذلك فيقول: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٧٦]. والأيكة: منطقة مليئة بالأشجار، وكان يعيش فيها قوم شعيب عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾، أي: خلقكم أنتم وخلق الأمم السابقة عليكم.

بهذه النصائح الغالية الحكيمة نصح شعيب ـ عليه السلام ـ قومه، وحاورهم بهذا الأسلوب البليغ، ولكنهم قابلوا نصحه بكل سفاهة وغرور، قالوا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾، أي: من الذين أصابهم السحر والجنون ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾، أي: عذابا ـ إن كنت من الصادقين

وهنا يرد عليهم شعيب بقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فماذا كانت نتيجتهم؟ كانت نتيجتهم الهلاك كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: الآيات ١٧٦-١٩١.

هذا جانب من حوار الخالق مع بعض مخلوقاته، وجانب آخر من حوار الرسل مع أقوامهم، وهناك ألوان أخرى من الحوارات التي ساقها القرآن الكريم مع أهل الكتاب، ومع

المنافقين، وحوارات أخرى عما أحله الله وحرمه، وحوارات عن طريق السؤال والجواب، وحوارات بين الأخيار والأشرار، وهي كلها حوارات المقصود منها: العظة والاعتبار، والإرشاد إلى طريق الهداية والرشاد.

وبعد، فإني قصدت من هذا المقال ـ ياقداسة البابا ـ أن أوضح لك أن الحوار الذى أنت تنادى به، قد نادى به الإسلام بطريقة أكمل وأعدل وأفضل وأشمل؛ لأنه يقوم على اعتبار الناس جميعا من أصل واحد، وأن الاختلاف بينهم فى العقائد لايمنع من التعاون، وأن الإسلام بمعنى إسلام الوجه لله ـ عز وجل ـ وإخلاص العبادة له هو دين جميع الأنبياء، وأن الأنبياء جميعا قد جاءوا برسالة واحدة هى إخلاص العبادة لله، ووجوب التحلى بمكارم الأخلاق.

وبهذه المناسبة ـ وأنت ـ ياقداسة البابا ـ تكرر الدعوة إلى الحوار ـ قد أرسلت إلى قداستك منذ شهور رسالة عن طريق سفيرك بالقاهرة أطلب من قداستك فيها رأيك ـ بعد حادث الصور المسيئة إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبينت لقداستك فيها استعدادى للحوار حول هذه المسائل التى فيها إساءات بالغة وقبيحة إلى الرسل الكرام، ولكنى لم يصلنى من قداستك أى رد لا من قريب ولا من بعيد، فهل هذا من أدب الحوار الذى تنادى به بأعلى صوتك ياقداسة بابا الفاتيكان؟ أرجو أن يكون كلامنا ـ ونحن رجال دين ـ يطابق أفعالنا، كما أدعو الله لنا جميعا بالهداية إلى الطريق المستقيم.

❊ ❊ ❊